المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين ، وإمام المتقين ، فخر العرب وعزها ، وعظيم البشرية كلها ، وطبيب القلوب بل دوائها ، وفرح الأرواح بل نعيمها:

كالبدر في شرف والزهر في ترف . . . والبحر في كرم والدهر في همم صلى الله عليه ، وعلى آله الطيبين ، الذين جعل الله مودتهم من الدين ، وحبهم علامة المؤمنين ، وعلى صحابته الذين امتازوا بشرف رؤيته ، وفازوا بفضل صحبته ، وزكوا بطيب رفقته ، فأحبوه حب الأم وليدها ، وذادوا عنه ذود الأسد عن آجامها ، وافتدوا به الآباء والأمهات ، وفارقوا لأجله البنين والبنات ، واستسهلوا الصعب لنشر دعوته ، واستطابوا الموت في سبيل خدمته ، وآزروه حتى استغلظ فاستوى على سوقه ، فمات وهو عنهم راض ، وساروا على دربه بلا صدود أو إعراض ، صلاة دائمة متصلة إلى يوم الدين .

واستفتح بالذي هو خير: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وبعد،

فإن الله سبحانه وتعالى جعل محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهداً على الناس أجمعين، وجعل سلوكه أعظم سلوك، وتصرفاته أهدى تصرف، فكانت بذلك قدوة ومثلاً يحتذى، وميزاناً صادقاً للبشرية في أعمالها وتصرفاتها، وقد كان هذا الهدي واضحاً لدى الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فكانوا يترسمونه، ويسيرون على هداه، ويتحرونه في كل أمورهم صغيرها وكبيرها ويقتدون به.

فيجب على كل مسلم ومسلمة الإقتداء والتأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالإقتداء أساس الاهتداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١] قال ابن كثير: "هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمِرَ الناسُ بالتأسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل -".

فمنهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوِّله إلى واقع عملي محسوس وملموس، ولذلك بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج - ليترجم هذا المنهج ويكون خير قدوة للبشرية جمعاء.

والحديث عن غزوات الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسراياه، ضرورة تربوية، وقيمة حضارية، لإظهار ما فيها من مبادئ وأخلاق عسكرية، فهذه الأخلاق ستظل حدث الأحداث في تاريخ البشرية، فإلي جانب كونها أعمال حربية كانت ذات أهداف وغايات سامية، وضعت للبشرية دستوراً ومبادئ وأخلاق تحاول المدنية - بعد ما وصلت من علم وحضارة - أن تحاكيها فلا تستطيع حتى الاقتراب منها.

والعـالم الآن في حاجـة إلـي دراسـة غزوات وسرايا الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، لـيس مـن زاوية التاريخ أو زاوية الأعمال العسكرية ، ولكن من الزاوية الإنسانية والنواحـي الأخلاقـية ، وأهـم مـا أبـرزته هذه الغزوات والسرايا من قيم ومبادئ وأخـلاق سـامية ، عمقـت روح الأخـوة والتعاون بين البشر وحافظت على روح السلام والمساواة بين الأمم .

ومـن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام ، والحـرب هـي الاستثناء ، فلا مسوّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة .

وإذا كـان الإسـلام قـد أتـاح الحـرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدنـية العـصر الحـديث ، ولا إلي ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة [(١)] .

فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكـنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً ، كلـها ترقـي إلـي احـترام الـدماء البـشرية والعمـل بأرقـي ضـروب العطـف علـى الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحـرب أصـبحت أداة وحـشية ، وأن الـتفاهم فيه العطف خير بدلاً منها ، فإنهم علـيهم أن يـتابعوا الإنـسانية في تـرقيتها ويدخلـوا فـيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحـرب وحـشية ، والجـري علـى ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية [(٢)] .

وحـروب الـنبي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هـجوم إلا علـى سـبيل المـبادرة بالـدفاع بعـد الإيقـان من نكث العهد والإصرار على القتال وتـستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . . . والحقيقة الثانـية أن الإسـلام إنمـا يعـاب علـيه أن يحـارب بالـسيف فكـرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع .

ولكـن لا يعـاب علـيه أن يحارب بالسيف "سلطة" تقف في طريقه وتحول بينه

(١) محمد فريد وجدى ، من معالم الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .
(٢) محمد فريد وجدي ، من معالم الإسلام ، ص ١٠٤ .

وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه .

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى في إخضاعها عن القوة . . . ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء ، وفي الأعقاب بعد الأسلاف . . . وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آبائهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه .

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال .

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . . ولابد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين[1] .

ومن الثابت تاريخياً أن المسلمين إنما خرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وأنه لولا وطأة الأذى ، واختناق الدعوة وعدم قدرتها على التنفس ما خرجوا من بلد هي أحب البلاد إلي نفوسهم وأعزها في قلوبهم ، وخير دليل على ذلك هذه العواطف المشبوبة والكلمات الحزينة التي ودع بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بقوله: "والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي الله وأكرمها على الله تعالي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"[2] .

والسيدة عائشة تقول: "لولا الهجرة لسكنت مكة ، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلي الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة"[3] .

وعبد الله بن أم مكتوم ينشد يوم عاد إلي مكة يوم الفتح:

يا حبذا مكة من وادي ::: أرض بها أهلي وعوادي

(١) عباس محمود العقاد ، عبقرية محمد ، ط دار الهلال ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) ابن سيد الناس ، السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ط ، مكتبة القدسي بالقاهرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ ، ١/١٨١ .

(٣) عبد العزيز كامل ، مواقف إسلامية ، سلسلة اقرأ ، ط القاهرة .

أرض بهـــــا ترســـخ أوتـــادي ::: أرض أمـــشي بهـــا بـــلا هـــادي [(١)]

فقـد هاجر المسلمون إلي المدينة ، وتركوا مكة وهي أحب بلاد الأرض إليهم فيها الكعبة متعبد العرب منذ عهد إبراهيم ومهوى أفئدتهم ، وخلفوا وراءهم كل شيء بعد أن أعلنت قريش الحرب عليهم طوال ثلاثة عشر عاماً ، لم تدع كريهة إلا أنـزلتها بهـم ولا خسيـسة إلا ألـصقتها بهـم . وكان طبيعياً أن يتوقع المسلمون أن جـيوش الـشرك مـن قريش لابد لاحقه بهم في مهاجرهم بالمدينة ، بعد أن أعلنت الحـرب علـيهم وأخـرجتهم مـن ديارهم ، وكان يقتضي ذلك أن يحتاط المسلمون للأمـر ويـتخذوا لـه أهبته حتى لا تفاجئهم قريش بحرب ولا تأخذهم على غرة ، وكـان مـن الطبيعـي أن يـتوقع المـسلمون هجـوم قـريش عليهم بالمدينة ، فبعد أن اسـتتب لهـم الأمـر فـيها عاهـدوا الـيهود ، ثم أخذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث بالسرايا والبعوث في ظاهر المدينة ليتسمعوا أخبار قريش من قوافلها التي لا زالت توالـي رحـلات الـتجارة صـيفًا وشتاءً من مكة إلي الشام ذهاباً وجيئة ، حتى إذا علموا بمقدم قريش لحرب استعدوا لها .

ولأن قـريش كانـت في حالة حرب مع المسلمين ، فقد كان اعتراض المسلمين لعـير قـريش الكـبرى عام بدر ، ومع أن العير أفلتت استطاع أبو سفيان – لما علم بالنـبأ – أن يهـرب عـن طريق آخر ، إلا أن قريش أصرت على الخروج وقال أبو جهل: " والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم فيها ثلاثاً ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونـسقي الخمـر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها " [(٢)].

فلـم يكـن موقـف المسلمين إذن في غـزوة بـدر إلا موقـف المدافع عن نفسه وكانت الحرب من جانبهم حرباً دفاعية لا هجومية .

وقـبل أن تبارح قريش مكان المعركة في بدر أعلنت استمرار قيام حالة الحرب بيـنها وبـين المـسلمين فـنذر كبيرهم أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٣)] .

وبعد فإن الحرب اليوم ليست هي الحرب بالأمس ، وأصبحت لفظة " الحرب " تـسرح في فـضاء ذهـني مفـتوح ، سـواء للمتلفظ أم للسامع ، وحتى لقائد المعركة

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط دار صادر ببيروت ، ١/ ١٤١ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ط دار الجيل ببيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ٢ / ١٩١ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٣ .

حول الخسائر والدمار الذي ستوقعه هذه الحرب ، فللحرب الآن ألوان كثيرة يصعب حصر معانيها ومآخذها وأضرارها فهناك الحرب الإعلامية ، والحرب الاقتصادية والحرب النفسية وحرب النجوم ، ولكن كلها يجمعها هدف واحد أو غاية محددة وهي فرض الهيمنة على الآخر للانصياع لمطلب ما ، وإن تمت تغطية هذا الهدف بأقنعة كثيرة مثل العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب ، والهدف من هذه الأقنعة إيجاد نوع من الشرعية الأخلاقية ، أما الشرعية القانونية فيتم التلاعب بها بمنطق القوة وحسابات المصالح لدي الرأي العام .

وإذا كانت الحرب في الإسلام قد قدرت بضرورة معينة وتم حصرها في صد العدوان وجعلها دفاعية في المقام الأول ، فإننا الآن نجد أن جميع الحروب التي تدار رحاها بين الدول أو تلك التي تديرها أمم أخرى بين الشعوب أصبحت هجومية فقط هدفها الاعتداء على الآخرين وإن تمت تسمية هذا الاعتداء بأسماء زئبقية نحو "حرب وقائية" مثل تلك التي يستخدمها اليهود مع الفلسطينيين ، ونحو حرب "استباقيه" مثل تلك خاضها الأمريكان في العراق ويحاولون مع غيرها ، ونحو حرب "الردع" وغيرها من المصطلحات التي تجمل صورة الحرب القبيحة .

والحقيقة أن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية منذ أن خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووقف له الشيطان موقف العدو المعاند ، ومنذ ذلك الوقت كان الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، وبين المعتدِي والمعتدَي عليه ، ثم تطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري ، وازداد ضراوة بازدياد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم ، وكان أشد أنواع ذلك الصراع ما دار بين أنبياء الله ورسله وبين المعاندين والمكذبين من أقوامهم ، وقد شهدت الإنسانية على مر العصور وكر الدهور الحروب ، وكانت سنوات الحرب في تاريخ البشرية أكثر من سنوات السلام ، وذلك طبقاً لأحداث الإحصائيات التي أكدت أن البشرية تشهد كل ٢١٣ سنة حرباً ، سنة واحدة سلام ، وفي هذا دليل على أن الحرب في الإسلام ليست شيئاً مبتدعاً ولا حدثاً مخترعاً ، كما أن البشرية في حاجة إلي السلام الذي تفتقده بشدة .

والحقيقة أن الحرب هي أحد وسائل حلول المشاكل والصراعات التي تعيشها الإنسانية حتى الآن ، وبعد أن بلغت الإنسانية أشدها ونالت العقول رشدها تبقي الحرب هي أحد أهم وسائل جسم المشاكل ، وإن كان الإسلام - كغيره من الشرائع - قد فرض الحرب ولكنه حاطها بالملطفات - الأخلاقيات - بما لم تبلغ

إليه مدنية القرن العشرين ، لأن الإسلام قاعدته الأساسية هي السلام والحرب هي الاستثناء .

والحرب في الإسلام مقدَّرة بضرورة ، ولم تفرض إلا للدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء ، والدفاع عن الدعوة ، فحروب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حروب دفاع ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود ومع الروم ، ودللنا على ذلك في ثنايا الحديث عن أسباب وأحداث غزوات وسرايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وهناك سوء فهم شديد شائع لمعني فريضة الجهاد في الإسلام يرجع إلي افتراض أن الجهاد مرادف للحرب والاعتداء ، فالجهاد مأخوذ من الجهد وهو الطاقة والمشقة فيقال: جاهد يجاهد جهاداً أو مجاهدة إذا استفرغ وسعه وتحمل المشاق وبذل نهاية الطاقة في الوصول إلي أمر معين أو في الحصول على مطلوب محدد ومن الممكن أن يكون المطلوب الحصول على المال أو التفوق في لون معين من ألوان العلوم ، وقد يكون بذل هذا الجهد الشاق حسياً كما نري في المسابقات الرياضية وما يشبهها ، وقد يكون معنوياً عن طريق التغلب على الخصم بالحجة الناصعة وبالأدلة القاطعة الساطعة والبراهين التي تخرس الخصوم .

والجهاد في سبيل الله أقسام: جهاد النفس – وجهاد الشيطان – وجهاد الكفار – وجهاد المنافقين ، وأضيف لها بعض معاني الجهاد السامية التي أضافها بعض العلماء المجتهدين مثل أن تهفو النفس إلي عز الإسلام ومجده والتفكير المتلاحق والمستمر في أحوال المسلمين وكيفية الخلاص من المحن التي يتعرض لها الإسلام وأهله .

وشرع الجهاد على مراحل وخطوات ، كل خطوة أو مرحلة كانت تقتضيها ظروف معينة .

وللجهاد في سبيل الله أهداف السامية منها: حرية العقيدة – ضمان إقامة الشعائر والعبادات – رفع الفساد عن الأرض – الابتلاء والتربية والإصلاح – رد كيد المعتدين – كشف المنافقين والخائنين – إقامة الحق والعدل في الأرض – نصرة المستضعفين في الأرض – تأمين طريق الدعوة وهداية العالم ، الاستعداد لرد كيد المعتدين .

وقد اختلف الإسلام عن غيره من الأديان بأنه ليس دينا فقط يتعبد به بل هو

دين وشريعة - قانون - وهذه الشريعة كاملة تتضمن جميع أوجه الحياة المختلفة وجميع الأزمنة حيث تمتاز بتطورها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، والشريعة الإسلامية هي الوحيدة التي رفعت المبادئ الأخلاقية إلي مستوي القواعد القانونية الشرعية وجعلتها إلزامية في مجال التعامل بين المسلمين وبينهم وبين البشر عامة في حالات السلم والحرب، هذه الأخلاق الحميدة أصبحت قانوناً التزم به الخلفاء والولاة والقادة قبل الجنود في حربهم وسلمهم، وهناك من الدلائل التي تؤكد على أن الفارق كبير بين الأخلاق والقوانين الوضعية، حيث أن الأخلاق لها من الضوابط والمميزات ما يجعلها جديرة بالالتزام والاحترام من أي قانون وضعي.

وإذا كان الإسلام - كغيره من الأديان والحضارات - قد أقر الحرب كوسيلة أخيرة لحل المشكلات ومواجهة العدوان إلا أنه حاطها بالملطفات ووضع لها الآداب والقوانين التي تحافظ علي الأرواح والممتلكات وتجعل منها حرب مثالية، فالإسلام يهتم بدعوة العالم الإنساني إلي الدخول في هدايته لينعم بهذه الهداية ويستظل بظلها الظليل، والأمة الإسلامية هي المنتدبة من قبل الله لإعلان دينه وتبليغ وحيه، وهي منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب، فكان أول عهد الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحرب وهو دعوة خصومة، فيقول ابن عباس: "ما قاتل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوماً حتى دعاهم" وتبدأ حروب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة [1] لأنها حروب دعوة وعقيدة، ولأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أعرف الناس بفعل الدعوة وأثرها في كسب المعارك وتغليب المقاصد، ولأن الدعوة من أغراضها إقناع الخصم والناس بالحق وإضعافه عن القتال بإبطال حجته وإقناعه ببطلان حربه وضعف موقفه، وتجلى الحرص على دعوة الناس قبل بدأ الحرب في غزوة خيبر وغيرها من المعارك، واستمر هذا الخلق كجزء من سياسة الخلفاء الراشدين، وقد وضح لنا الفرق بين دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الحرب، والدعوة التي يطلقها الإعلام الغربي الآن قبل أي حرب يشنها المعتدون من أجل تسويغ وتسويق حروب الاعتداء.

وكان من أهداف الحرب في الإسلام الإصلاح: فمنذ أن جاء الإسلام وبزغ فجره جاء بمبدأ وهدف سام وهو الإصلاح، حيث يقول المولى - عز وجل -: **﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** [القصص: ٨٣] ويقول - تعالى -: **﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

بل إن مقاصد الشريعة الخمسة: حفظ النفس والعقل والدين والمال والنسل ، هـي الإصـلاح وتعمير الأرض ، وكانت وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي أمراء الجيش تصب في معني الإصلاح وعدم التخريب أو التدمير ، وسار على سنته من بعده الصديق أبو بكر والفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكانت وصاياهما تحمل نفس المعني .

كما أنه دعا منتسبيه والمحاربين في صفوف جيشه إلي ضبط النفس: إن استحضار عظمة الله والطاعة والذكر مدرسة خلقية وتربية نفسية ، إذا التزم بها الجندي ، وتغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلي جميع عروقه ومشاعره وجري منه مجري الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها وغمر القلب والعقل بفيضانه جعل منه رجلاً غير الرجل وظهرت منه روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة وخوارق الأفعال والأخلاق ، ولهذا فإن الإسلام قد شرع الذكر والطاعة عند القتال لكبح جماح النفس البشرية حتى لا تنزع إلي الظلم والشر والانتقام ، وكبحها بلجام الطاعة والالتزام بأخلاق الإسلام .

ودعا الي الرحمة مع ممن يتعاملون ، فالرحمة في الإسلام رقة القلب وانعطاف النفس المقتضي للمغفرة والإحسان وهي لن تكون أبداً مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها في الخارج بل إنها ذات ثمار خارجية ومظاهر حقيقية تبدو في كل تصرف لجنود الإسلام ، لا وقد وصف المولى عز وجل قائد هذه الأمة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ويقول عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وبلغت رحمة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل شيء ، واستظل بفيئها الأعداء وحتى الزرع والحيوانات ، وكان شعار الجنود والقادة الرحمة .

وحروبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها تدعوا إلي احترام الأبرياء: فالبريء لا يؤخذ بجريرة المذنب كما قال تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [فاطر: ١٨] هذا هو مبدأ الإسلام في الدنيا والآخرة ، ولذا فقد تجنب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والعجزة والعبيد والإماء في غزواته وسراياه ، بل إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرأف لحالهم ومواقفه في ذلك أكثر من أن تحصى وقد عرجنا علي بعضها في ثنايا الحديث عن الغزوات والسرايا ، فمنها في غزوة حنين

وفي بعث خالد بن الوليد إلي جذيمة وفي واقعة إسلام ثمامة بن أثال ، وفي قصة قتل أبي رافع بن أبي الحقيق ، وفي موقف خبيب وزيد بن الدثنة في غدر عضل والقادة .

ولقد شرع الإسلام احترام آدمية المحارب فنهي عن التمثيل بجثث المحاربين والتعرض لها ، وشرع تكريمها بدفنها وتمريض الجرحى لأنها أبسط قواعد الإنسانية والإسلام دين الإنسانية كلها ، وقد فرض تكريم الإنسان فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠] وقد كانت من وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدم التمثيل بالجثث وأمر بدفن جثث المشركين في بدر والأحزاب .

كما كان شعار حروبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العفو والصفح الجميل: فالحلم والاحتمال والعفو مع القدرة والصبر على ما يكره ، بين هذه الألقاب فرق فالحلم: حالة توفر وثبات عن الأسباب والمحركات ، والاحتمال حس النفس عند الآلام والمؤذيات ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة ، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة ، وهذه الصفات والأخلاق مما أدب الله عز وجل به الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال تعالى: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، فقد كان عفوه وصفحه الجميل نادراً استظل بفيئه أعداءه ومحاربوه حتى أشرار مكة ، وحتى من حاول قتله ومن صد دعوته وآذاه وآذى أصحابه ، وإن كان هناك بعض من لم يشمله هذا العفو فكان ذلك لأسباب أوردناها .

كما شرع الإسلام الإحسان إلي الأسرى ومعاملتهم معاملة حسنة رحيمة ، فهو يدعو إلي إكرامهم والإحسان إليهم ويمدح الناس يبرونهم ويثنى عليهم الثناء الجميل حيث يقول تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً** ﴾ [الإنسان: ٨] .

وجاءت وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومواقفه في الإحسان إلي الأسرى لتكمل منظومة الإحسان بالأسرى بما لا تستطيع البشرية – بعد ما وصلت إليه من حضارة – أن تخرج لنا قانونا يقترب من إحسان الإسلام إلي الأسرى ، وقد حدثت في سيرة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مواقف إحسان للأسرى ما تعجز البشرية أن تجود بمثله ، وتم الاستطراد في هذا المبحث لدحض العديد من الشبهات التي يثيرها المشركون حول الإسلام مثل قتل الرسول لبعض الأسرى ، وموقفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني قريظة ، وموقف الإسلام من الرق والعبيد وحسن صنيع

النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المواقف .

كما كانت حروبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تعرف المادية ولا الأغراض الشخصية ، فمنذ الوهلة الأولي لبعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلن أن هدفه ليس لجمع المال ولا لاكتناز الثروات ، وليس لإقامة مجد شخصي ولا ملكية وراثية ، فقد عرضت عليه قريشاً ملكاً ورئاسة وشرفاً لم يكن لغيره من بشر ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا ، ووقع في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات والتواضع ما يأخذ بالألباب والأفئدة ، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحارب ابتغاء ملك أو زعامة أو إحياءً لقومية أو عصبية .

وكان ديدن المسلمون في حروبهم التواضع ، فلقد نهي المولى عز وجل عن الاتصاف بالتفاخر عند الانتصار أو التظاهر بالقوة كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [الأنفال: ٤٧] .

وأكد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال سيرته على أن الحرب ليست هدفا والانتصار ليس مقصداً ، وبالتالي فإن التفاخر بالنصر والتعالي ليس له محل من الوجود وانظر كيف كانت هيئته وهو يدخل مكة التي أخرجته - فاتحاً منتصراً ، وكيف عامل الناس ، ومن يردف خلفه على ناقته .

ولقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حروبه أوفى الناس ذمة ، وقد عظم وفاؤه واتسع ليشمل أعدائه ، ونماذج ومواقف الوفاء في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة مثل الوفاء يوم بدر وبئر معونة والحديبية وفتح مكة ، كما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا على الوفاء كان أيضاً بعيداً عن الغدر والخيانة وينفر منهما ، وجعل شعار الإسلام: وفاءٌ بغدر خير من غدر بغدر ، ومن أهم وأجمل صور الوفاء في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رد أيادي الخير ، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحفظ الجميل لصاحب الجميل ويكافئه عليه حتى وإن كان الحيوان ، مثلما حدث يوم ذي قرد .

ولم يحدث ولم يذكر لنا التاريخ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أكره أحداً على ترك دينه أو اعتناق الإسلام ، بل كان سمحاً مع كل من قابله وعامله ، وفي هذا المبحث أخذنا الحديث عن بعض الحقائق التي تشهد وتدلل على سماحة الإسلام ونبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يكن في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من الممكن أن يحمل على الإكراه ، بل إن في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مواقف تدلل على عكس ذلك تماماً ، وقد سقنا الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على زيف الإدعاء الباطل وقول المغرضين أن الإسلام قد انتشر بحد السيف وقوة السلاح .

ولم تكن حروبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تعرف العنصرية: فالعنصرية تقوم على إدعاء أن شعباً من الشعوب أو قوماً من الأقوام أو جنساً من الأجناس البشرية أو قبيلة من القبائل أو عشيرة من العشائر أو مجموعة من الناس خاصة تتميز بصفاتها الجسمية أو العقلية عما عداها وأنها لذلك صاحبة فضل على غيرها وكذلك فالقيادة والسيادة والفضل لها على غيرها، ولما جاء الإسلام أعلن نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه ليس دينا لقبيلة دون قبيلة ولا لأمة دون أمة ولا للعرب دون العجم ولكن للناس أجمعين، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ فالإسلام يعمل لفكرة جليلة فكرة وحدة الإنسانية، وقد ثبت من سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقاوم العصبية والتعصب ويكافح العناصر والأجناس، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يريد أن يجمع العالم كله على صعيد واحد.

وبعد هذا التفصيل لآداب وأخلاقيات الحرب في سيرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وبعد المقارنة بينها وبين القوانين الدولية التي تحكم العالم في حالات الحرب والسلم، فالخلاصة التي يجب أن تخرج عن هذا العمل: هو أن حروبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كانت مثالية لأن أهدافها هي الدفاع عن حرية الرأي وتوطيد أركان السلام، تصون أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء، وتعطف على الأسرى والرهائن وتواسى المرضى والجرحى، ولا تمثل بالقتلى بل تدفنهم كقتلاها، ولا تثيرها الأغراض الشخصية ولا العصبية ولا المنافع المادية ولا الاستغلال والاستعمار فإذا لم تكن هذه الحرب مثالية فأي حرب في التاريخ كله يمكن أن نطلق عليها هذا التعبير؟!

وبعد فإني أتقدم بخجل شديد من سيدي وقائدي وحبيبي وشفيعي بإذن الله يوم القيامة وفرطي على الحوض الرسول الكريم بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه بهذا العمل المتواضع عن جزء من سيرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأسأل الله تعالى أن يكون ما في القلب من حبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ جابراً لما في العمل من تقصير.

وإني إذ أتشرف بالكتابة عن بعض سيرة الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقد سبقني في الكتابة عن سيرة الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أساتذة عظام وكرام كاتبين من كرام الأئمة وصفوة الصالحين، ولئن ترتفع لي هامة بين هاماتهم العالية وإن أنسب إليهم فهذا شرف لي.

وأنا إذ أكتب عن سيرة الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فإني أشعر بسعادة غامرة لأنني قد نلت شرفا لا يدانيه شرف وحظوة يغبطني عليها الكثير، وكوني قد خطت يدي بعض سيرة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فهذه أمنية قد تأخرت كثيراً،

ولكن شاء الله عز وجل أن تحققت وهذا فضل من الله ومنة ، والله عز وجل أسأل أن يكـتب لهـذا العمـل القـبول بـين المسلمين وأن يظـل بـين أيديهم وفي عقولهم وقلـوبهم إلـي قـيام الـساعة ، وأن يكون علم ينتفع به أثاب عليه بعد مماتي وعند لقاء ربي . . . أمين أمين أمين .

كما أسأله سبحانه وتعالى التسديد لما يرضيه من الأقوال والأفعال ، وأن يجعل هـذا العمـل في ميزانـي يـوم العـرض علـيه ، وأن يكـون سـببا في شـفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . اللـهم مـا وافـق الحـق مما كتبت فمنك وحدك وبفضلك وجودك وكرمك ، وما خالف الحق فمني وأنا منه بريء ، والحمد لله رب العالمين .

"الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله" .

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه ،

رجب محمود إبراهيم بخيت

❊ ❊ ❊ ❊ ❊